مقدمة

يسألني الناس، لماذا تؤلفين كتاباً عن الطعام؟ أظن أن الأمر يبدو غريباً لهؤلاء الذين لا يعرفونني: أنا، على أي حال «سيدة الشمبانزي»، وفي آسيا غالباً ما يُطلق عليّ اسم «أم الشمبانزي»، إذن لِمَ أرغب بالاهتمام بالطعام؟ دعوني أوضح.

فقد أمضيت ساعات وساعات منذ عام 1960 وما بعد في مراقبة آلية تغذية قردة الشمبانزي، وجمعت عينات مما كانوا يأكلونه، ودونت ملاحظات عن السلوك المرتبط بالطعام ـ أبق الجميع بعيداً، إن كان ذلك ممكناً بالنسبة لك، ما لم تكن هناك كمية أكثر من كافية لكل واحد. مما يعني أنه إذا كنت أنت الشمبانزي الزعيم، فباستطاعتك أن تبقي الجميع بعيدين عن الطعام الذي تستمتع به فعلاً. وقد تبين لي لدى عملي لمدة إضافية، أن إناث القردة التي تتولى السيطرة كانت لديها وظيفة تناسيلة أكثر نجاحاً. فقد بدأت بإنجاب الأطفال في وقت أبكر، وكانت تلد عدداً أكبر. وعليه فقد كان واضحاً أن منزلة السيطرة العليا ساعدتك في الحصول على المزيد من الطعام، بل وعلى أفضل الطعام، وأن ذلك سوف يعود بالفائدة على ذريتك، ولاسيما بناتك. ومن ثم فهي، مثل أمهاتها، ستصبح في منزلة عليا وستحقق النجاح. إذن، كان الطعام مهماً. وقد تبين لي، أنها سوف تتنازع على الطعام، لاسيما الطعام المفضل الذي يأتي بكميات قليلة.

عندما لم أكن هناك في الغابة، حيث المكان الذي لطالما أحببت أن أكون فيه أكثر من أي مكان آخر، كنت أمضي الكثير من الوقت في مراقبة الناس. لمجرد التسلية. وفي نهاية السبعينيات، عندما بدأت بإلقاء محاضرات عن قرود الشمبانزي، كنت مذعورة فعلاً من التحدث أمام الجمهور (رغم أن أحداً لم يعلم بذلك). كنت كثيراً ما أجد نفسي في حفلات عشاء تقام قبل أن أتحدث. ولم تكن هناك من وسيلة تجعلني قادرة على تناول الطعام فيما كانت معدتي تتشابك. لذا اعتدت أن أراقب الناس مما ساعد في تخفيف التوتر الذي أشعر به، لأنه وتحت

المظهر الخارجي المخادع لإنسان القرن العشرين بوصفه نوعاً بيولوجياً، كان بإمكاني وبسهولة شديدة، أن أرى نمط السلوك ذاته الذي تابعته على مدى طويل لدى قردة الشمبانزي.

بعد ذلك وفي عام 1986 حضرت مؤتمراً نظمته أكاديمية شيكاغو للعلوم تحت عنوان «فهم الشمبانزي» الذي غيّر حياتي. فكل أولئك الذين يعدون دراسات عن سلوك الشمبانزي في إفريقيا، والكثيرون ممن يجرون دراسات في حدائق الحيوان، جاؤوا معاً، تحت سقف واحد من أجل حضور مؤتمر عقد على مدى أربعة أيام. لقد أصبح واضحاً أن تلك القردة المذهلة في ورطة. إذ كانت مواطن بيئتها إلى زوال. وكانت تعامل بقسوة في كثير من ظروف احتجازها. فقد كان يتم أكلها وكان يجري اصطيادها وبيعها كطعام من أجل كسب المال. لقد اكتشفت أن هذا الأمر قد بات يشكل مشكلة خطيرة ـ ليس فقط بالنسبة للشمبانزي، ولكن لجميع حيوانات الغابة ـ لأنه بالإضافة إلى الصيادين الذين كانوا منذ القدم يلازمون الغابة ويعتاشون على سخائها، فإنه يجري الآن اصطياد الحيوانات لأغراض تجارية. وأصبح ذلك ممكناً بفضل الطرق الجديدة التي أنشأتها شركات الأخشاب الأجنبية والتي تؤمن الدخول إلى غابات لم يكن من الممكن دخولها في السابق. فقد ركب الصيادون الشاحنات وأقاموا معسكرات عند نهاية الطرقات، وأطلقوا النار على كل ما هو صالح للأكل من الفيلة إلى الخفافيش، وعالجوا لحومها بطريقة التدخين لحفظها، وباعوها في البلدة حيث كانت النخبة المتمدنة تدفع «للحم الأدغال» هذا أكثر مما تدفعه للحم الدجاج أو البقر.

لقد غادرت المؤتمر مع إدراكي بأن عليّ أن أفعل ما بوسعي للمساعدة في إنقاذ قردة الشمبانزي، وتحسين أحوالها وأوضاعها، والوفاء بالقليل مما كانت قد منحتني إياه. أدركت أنه لم يعد بإمكاني الجلوس ومراقبتها في الغابات التي أحبها وكان عليّ بدلاً من ذلك، أن أسافر في العالم للتوعية بمحنتها لأنها على وشك الانقراض.

لم يستغرق الأمر طويلاً قبل أن أتحقق بأن المشكلات التي تواجه الشمبانزي مرتبطة بشكل وثيق بالمشكلات التي تواجه إفريقيا. وسرعان ما أدركت أنه يمكن في حالات عدة تحميل مسؤولية هذه المشكلات لأسلوب الحياة الذي لا يمكن تحمله والذي تعيشه مجتمعات النخبة حول العالم، فأسلوب حياة جرى تفقيسه في العالم الغربي وتصديره مع قيمه (أو غيابها) والتكنولوجيا الخاصة به، إلى العالم النامي. ولمساعدة قرودي، كان عليّ إذاً أن أبدأ التفكير بوسائل توعية هؤلاء الذين، ودون علم منهم، كانوا يسلبون من عالم الطبيعة المزيد والمزيد من موارده الطبيعية التي لا يمكن تعويضها.

هنالك وسائل عديدة وعديدة جداً نقوم بواسطتها بالعمل على تدمير كوكب الأرض. وحالما نفهم نحن، وحالما نهتم، عندها يتوجب علينا أن نفعل شيئاً. وعندما أدركت هذا الواقع، عرفت أنه كانت لدي وجهة نظر فريدة. فقد كنت قد نشأت في زمن التقشف خلال الحرب العالمية الثانية ــ وتعلمت ألا أعتبر أي شيء على أنه أمر بدهيٌ. بل أدركت أن امتلاك ما يكفي ــ من الثياب والطعام ــ كان هو الأمر المهم ــ وانطلقت من تلك الطفولة السعيدة إلى غابات إفريقيا، كي أجري دراساتي على الشمبانزي وأعيش حلمي. وعندما وصلت بداية إلى متنزه غومبي الوطني في تنزانيا، وجدت عالماً حيث الكل كان نقياً ــ كانت الينابيع التي تتسبب في جريان جداول المياه في غومبي تتغذى في عمق تجمع غير ملوث لمياه الأمطار. ولم تكن هناك مواد كيميائية من صنع الإنسان في الغابة وكانت بحيرة تنجَنيقا أكبر حوض للمياه العذبة غير الملوثة في العالم.

وبعدها، تغّير كل ذلك تدريجياً. فقد تضاعف عدد السكان الذين يعيشون في الغابات حول منطقة غومبي. وكان هناك لاجئون من بوروندي والكونغو. وتم قطع الأشجار وأدى تآكل التربة إلى تعرية منحدرات الجبال التي كانت خضراء فيما مضى. وازدادت معاناة الناس ــ المزارعون الفلاحون والصيادون، كما إن أفقر الفقراء ــ عانوا بشكل متزايد. وفي خضم كفاحهم من أجل البقاء، قطعوا

الأشجار فانجرفت التربة. فالكثيرون كانوا جائعين. وتدخل الغرباء من ذوي النوايا الحسنة في شؤون الوسائل القديمة المتبعة في صيد الأسماك التي مكنت الصيادين من العيش بانسجام مع عالمهم، حتى إنه في آخر الأمر كان الصيد في بحيرة تنجَنيقا زائداً عن الحد. فازداد فقر الناس وجوعهم.

كان من عادتي أن أغادر تنزانيا لإلقاء محاضرات في أوروبا وأميركا ولأشاهد الناس يأكلون دائماً، إذ يتم شراء المزيد والمزيد من الطعام ورمي المزيد والمزيد منه بعيداً. فأناس يموتون من كثرة الأكل فيما كان الناس في إفريقيا، الذين كنت قد تركتهم للتو، يتضورون جوعاً. لم يكن بمقدوري أن أحاول مساعدة قردة الشمبانزي فقط، بينما كان الناس يكافحون من أجل البقاء. ولذلك بدا واضحاً: أنه من أجل مساعدة الشمبانزي، كان من الضروري العمل مع الناس الذين يعيشون في القرى الواقعة حول غومبي.

ولقد تنقلت بالتدريج بين مجموعات مختلفة، حيث بدأت أتعلم المزيد عن الفقر والجوع. وفيما كنت أسافر إلى مناطق أبعد وأبعد في العالم، التقيت المزيد والمزيد من الشباب الذين كانوا قد فقدوا الأمل. ووجدت اليأس، واللامبالاة والغضب وتوصلت إلى إدراك، ومن خلال الإصغاء إلى أصوات الحكماء، بأن البشر يتبعون مساراً قد يقودهم بسهولة إلى نهاية الحياة على الأرض كما نعرفها. ذلك لأننا نقوم بتلويث الهواء والماء والتراب بواسطة المواد الكيميائية الصناعية. وتؤدي الكيماويات الزراعية التي تستخدم كسماد، ومبيدات الحشرات والأعشاب الضارة من أجل نمو غذائنا، إلى إحداث مقدار هائل من ذلك التلوث. فمواد كيمائية كان قد جرى تطويرها في بعض الحالات لاستعمالها في الحروب ضد أعداء من جنس البشر. واكتشفت أيضاً، أننا مذنبون لممارستنا قسوة لا تحتمل ضد الحيوانات التي نربيها لتكون طعاماً. إن علينا أن نفعل الكثير حتى ندرك إمكانياتنا البشرية، فيما يتصل بالتعاطف والغيرية والمحبة.

لقد بات واضحاً على نحو متزايد أن زراعة، وحصاد، وبيع، وشراء، وإعداد، وأكل الطعام يلعب دوراً مركزياً في العالم. كما أنه من الواضح وبالقدر نفسه أن بعض الأمور تسير في الاتجاه الخاطئ. فالكثير من طعامنا غير صحي. والكثير من الناس لم يعودوا على دراية بمصدر طعامهم. بل إن بعضهم لا يملكون أدنى فكرة عما يأكلونه. وفي الحقيقة، وعلى مدى السنوات المئة الماضية ـ لاسيما خلال نصف القرن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ـ قام العالم الصناعي والتكنولوجي، وعلى نحو متزايد بالقضاء على فهمنا للطعام الذي نتناوله: من أين يأتي، وكيف وصل إلى موائدنا؟!.

لقد كان للبشر في وقت من الأوقات علاقة أكثر ألفة مع الأرض والحيوانات التي أمدتهم بالقوت. إذ كانوا يجمعون طعامهم، ويستخدمون أدوات بدائية لسحق قشور البندق، ويقطعون أوصال جثة حيوان بعد عملية صيد ناجحة، وعندما اكتشفوا النار، تجمعوا معاً ليأكلوا داخل مأواهم الصخري ـ ربما فيما كانت الضباع أو الذئاب تقف في الخارج بانتظار فضلات الطعام. ثم ومع قدوم الزراعة، عمل الناس في الحقول، يحرثون وينثرون البذور وبعد ذلك يقومون بأعمال الحصاد. الكل انضم للمشاركة في العمل والمساعدة على جلب الحنطة والتبن إلى الداخل قبل أن يهطل المطر. وكانت النسوة يقمن بخبز وغلي وقلي الطعام، وتعليق لحوم بعض الحيوانات من السقوف. وكان يجري حلب الأبقار وصنع الزبدة والجبن في معمل الألبان. كانت المواسم مهمة. وكان للطقس أهميته لما له من تأثير في المحاصيل.

هنالك اليوم أكثر من ستة بلايين إنسان على هذا الكوكب، جميعهم بحاجة لأن يأكلوا. ولقد شهدنا صعود شركات عملاقة متعددة الجنسيات إلى السلطة وهي متلهفة لاستغلال فرصة وجود مثل هذه السوق العالمية الفسيحة. ومن أجل إنتاج المزيد والمزيد من الغذاء، سواء لإطعام الشعوب الجائعة أم لإرضاء الرغبات ـ باعتبارها منفصلة عن الاحتياجات ـ الخاصة بالنخبة الحضرية المادية لعالم

اليوم، فقد تغيرت الأنظمة المتبعة في الزراعة. كما أن هدف الشركات التي تزداد قوة على نحو دائم، بفضل دعم الحكومات التي تساعدها في الوصول إلى السلطة، هو إنتاج أكبر قدر ممكن من الطعام، بأرخص ما يمكن وبالحد الأعلى من الربح لصالح حملة الأسهم.

نحن نعيش في حقبة يتم فيها، في أي وقت تسميم التربة والماء والهواء بفعل المواد الكيميائية الزراعية، مما يؤدي إلى إصابة الناس بالأمراض ـ وإضافة إلى ظهور أمراض جديدة. فهي حقبة يتم فيها، في أي وقت قطع غابات الأمطار الاستوائية بشكل جذري من أجل زراعة الذرة لإطعام الماشية. ويتم في أي وقت تكديس الحيوانات التي تربى من أجل أكلها، وبصورة أكثر كثافة دون الإبقاء على مسافة فيما بينها أو دون اعتبار لكرامتها، وتتم تغذيتها بأطعمة دسمه وغالباً غير طبيعية، لضمان أن تكسب أثقل وزن ممكن، أو أن تعطي أكبر مقدار ممكن من الحليب أو أن تضع أكبر عدد ممكن من البيض، وذلك في أقصر مدة من أجل تحقيق أكبر ربح من كل حيوان كل يوم.

معظم الناس ليست لديهم أي فكرة بأن هذه الشركات تتحكم في مساحات متزايدة من الأراضي الزراعية في العالم، مع سيطرتها على أعداد متزايدة من البذور التي ينمو منها غذاؤنا. وأنها تتحكم في طريقة زراعة البذور ـ في الزراعات الأحادية المحصول وفي حقول واسعة تعرضت للتسمم. ومعظم الناس لا يعرفون أن الشركات قد استولت على إنتاج اللحوم أو أنها تقوم تدريجياً بإزاحة آخر صغار مزارعي الأُسر التقليديين. كما لم يدرك معظم الناس مدى السرعة التي تستولي فيها الشركات متعددة الجنسيات على متاجر البقالة التي كانت تبيع الإنتاج المحلي في يوم من الأيام. حقاً، إن الكثير من أطعمتنا الإقليمية، والتنوع الغني لمحاصيلنا، يعد معرضاً للخطر حالياً بسبب تحكم الشركات في طعامنا وزراعاتنا.

لقد أوجد ذلك حاجزاً بيننا وبين الأرض وبين غذائنا. حاجز يفترض به أن يمنعنا من إدراك الدمار والعذاب اللذين غالباً ما تحتويهما كل لقمة. إن المزيد والمزيد من الناس في المراكز الحضرية المنتشرة حول العالم يستطيعون اليوم شراء طعام عشاء، مجمد ومسبق الإعداد من متجر للبقالة، أو دفع ثمن وجبة في مطعم، وتناول الطعام دون أي معرفة بحقيقته فعلاً، ولا كيف تمت زراعته أو حصاده أو طهيه، أو ما هو مصدره. معظم الناس لا يتساءلون أبداً حتى عن طول المسافة التي قطعها الطعام الذي يأكلونه حتى يصل إلى متاجر البقالة المحلية، ومقدار الطاقة والثروات التي استخدمت لإيصاله إلى هناك.

ماذا يمكن فعله من أجل إيقاف عمليات الاستيلاء الفظيعة للشركات والمدفوعة بالرغبة في المزيد ودائماً المزيد من الربح المادي؟ كيف يمكننا تغيير عالم تُتخذ فيه القرارات التي تؤثر في صحتنا وصحة الكوكب لأجيال قادمة من أجل تقديم بيان النمو الاقتصادي في الاجتماع القادم لحملة الأسهم؟ ماذا بإمكاننا أن نفعله كوننا أفراداً في عالم جشع الشركات العملاقة هذا، ومعاناة الإنسان والحيوان والدمار البيئي. هل الأمر خارج عن سيطرتنا قطعياً؟ هنالك الملايين من الناس الذين يفكرون بهذه الطريقة، والذين يشعرون بالعجز في مواجهة المشكلات الجسيمة. ولذلك فإنهم حتى لو كانوا مهتمين إلا أنهم يقعون فريسة اللامبالاة.

هذا الكتاب هو نداء صارخ لاستثارة حفيظة مثل هؤلاء الناس ضد التسليم بالواقع الراهن، والذي لايستند إلى أي أساس. لا يمكنني التأكيد بما فيه الكفاية أن كل فرد يحدث فارقاً. وآمل أن تدرك أنت تماماً ما الذي بإمكانك أن تفعله ـ أوأن تقرر فعله.

سوف أعرفكم على بعض الأشخاص الرائعين الذين يقومون بالتصدي للشركات العملاقة وبإيقافها ـ وكما في أسطورة ديفيد وغولياث، فإنهم ينجحون في إلحاق الهزيمة بها أحياناً. إنهم ملهمون بحق، وهم يجسدون الروح الإنسانية التي لا تقهر. كما يقوم آلاف آخرون بتأدية الدور الخاص بهم وبطرق أقل إثارة.

إذ يتزايد عدد المستهلكين من كل أنحاء العالم المصابين بالإحباط والذعر، الذين يرفضون التسوق لدى سلسلة محلات الوجبات السريعة وهم يصرون على شراء الطعام العضوي المنشأ. فإذا ما حاولنا جميعنا، ممن يمكنهم تحمل ذلك، القيام يومياً باعتماد خيارات أخلاقية فيمايتعلق بماهية الطعام الذي نبتاعه ونأكله، والجهة التي نشتريه منها، فإننا نستطيع، مجتمعين، أن نغير طريقة زراعة وتحضير طعامنا.

إنني آمل، في هذا الكتاب، أن أتمكن من زيادة مقدار تفهم قضايا حيوية مهمة من أجل استدامة الموارد الطبيعية لكوكب الأرض، ومن أجل خير الحيوانات، وفي نواح هامة جداً، من أجل صحة البشر.

لم يفت الأوان كثيراً لتغيير الاتجاه. إننا نستطيع مرة أخرى أن نقيم ارتباطاً بالطعام الذي نأكله، وأن نتعلم فهم طبيعته وتاريخه وتقبله بوصفه نظاماً غذائياً يعتمد بصورة أكبر على الطبيعة. يتوجب علينا أن نفعل ذلك لأننا نعيش مرحلة حرجة من التاريخ البشري. وإذا ماواصلنا السماح لعالم الشركات بالتحكم في مخزوننا الغذائي، فإننا قد نبدد أو نسمم جميع الموارد الغذائية التي تمدنا بالحياة، خلال نصف القرن المقبل.

أنا لدي ثلاثة أحفاد صغار السن وعندما أفكر في كيفية قيامنا بالتسبب بالأذى لهذا الكوكب منذ أن كنت في مثل سنهم، فإنني أشعر بألم عميق. إنه لمن الضروري جداً إكراماً لهم، أن يتم الارتداد عن النزعة السائدة باتجاه الدمار. وإن إحدى الوسائل التي نستطيع بواسطتها إحداث اختلاف بالفعل تتمثل في التفكير فيما نأكله. فكل قرار نتخذه ـ فيما نختار أن نشتريه، أو ما نختار أن نأكله، سوف يكون له تأثير في البيئة، وفي الصالح العام للحيوان ـ وفي نواح هامة بالصحة البشرية. وهكذا، ومع إدراكي لهذا الأمر، فقد قررت أنه كان من الضروري تأليف كتاب حوله. كتاب أرجو، أن يساعد الناس على فهم ما يجري بحيث يدرك الجميع أهمية الدور الذي يستطيع كل واحد منا أن يلعبه لجعل هذا

العالم عالماً أفضل. سوف يكون من الصعب الانطلاق بشكل جزئي ـ فقد قمنا بالفعل بإفساد الأمور. لكنني أرجو أيضاً أن يكون الأمر مسلياً وأن يحمل معه الأمل من أجل المستقبل.

دعونا نعمل معاً قلباً وقالباً فيما يقوم كل واحد منا بالقسط المتوجب عليه لإيجاد عالم أفضل لأولادنا، ولأولاد أولادنا. ومن أجل أن يكون الحصاد الذي سنتركه لهم لكي يقوموا بجنيّه، وبحق، «حصاداً من أجل الأمل».

obeikandl.com